مسالك

المتكلِّم
في السرد العربي القديم

أعمال ندوة بإشراف

محمد الخبو

محمد نجيب العمامي

العنوان: المتكلّم في السرد العربي القديم
تأليف: أعمال ندوة –بحوث محكمة
إشراف : محمد الخبو – محمد نجيب العمامي
الطّبعة: الأولى 2011
1- دار محمّد علي للنّشر ©.
نهج محمّد الشّعبوني – عمارة زرقاء اليمامة3027 صفاقس، تونس.
الهاتف: 216/74407440 +
الفاكس: 216/74407441 +
البريد الألكترونيّ:edition.medali@tunet.tn
الموقع : www.edition-medali.com
رقم النّاشر: 49-11/451
التّرقيم الدّوليّ: ISBN 978-9973-33-351-3
2- كلية الآداب والفنون والإنسانيات - منوبة ©.
المركب الجامعي بمنوبة - تونس
© حقوق الطبع محفوظة

طبع بتونس: أوت 2011
المطبعة: مطبعة التسفير الفني صفاقس
الإيداع القانوني: الثلاثية الثالثة 2011

أعمال هذا الكتاب مهداة إلى أبي المناهج الحديثة في الجامعة التونسيّة أستاذ الأجيال الأستاذ توفيق بكّار.

الفهرس

المقدّمة 7

محمّد بن محمّد الخبو/محمد نجيب العمامي

أقنعة المتكلّم في أدب الأخبار 13

محمّد القاضي

المتكلّم في المراسلات السرديّة القديمة 29

صالح بن رمضان

مسألة المؤلّف في أخبار العشق في قديم أدب العرب 43

محمّد بن محمّد الخبو

المتكلّم في خبر جميلة من كتاب الأغاني 67

أحمد السماوي

المتكلم في بعض أجناس النثر العربي القديم 89

نورالدين بنخود

المتكلّم في "كتاب التوهّم" لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي ...117

علي عبيد

المتكلم واستراتيجية الخطاب في الرحلة 153

حسن لشكر

المتكلّم واستراتيجيات السّرد في أخلاق الوزيرين لأبي حيّان التّوحيدي ...169

عبد الله البهلول

مقامات الهمذاني وسنّة الراوي في المدوّنة السرديّة عند العرب 197

مريم حمزة

المتكلّم في المقامة الحرزيّة 225

حاتم السالمي

المتكلّم وعمل الخَرْقِ ومقاصده في كتاب "العظمة" 241

لطفي زكري

أقنعة المتكلّم في أدب الأخبار

محمّد القاضي
كلية الآداب والفنون
والإنسانيّات جامعة منّوبة- تونس

إنّ الإلمام بحركة الرواية والتأليف التي طبعت بميسمها الثقافة العربيّة في القرون الهجرية الأولى أمر ضروري لإدراك الطبقات المتراكبة التي أسهمت في تشكيل ملامح أدب الأخبار. وقد أردنا أن ننطلق في هذا البحث من مدوّنة ومن فرضيّة. فالمدوّنة هي "شرح نقائض جرير والفرزدق"[1] لأبي عبيدة المتوفّى في مطلع القرن الهجريّ الثالث. وهو أقدم مدوّنة لأيّام العرب، إذ توجد قرائن كثيرة تدلّ على أنّ جلّ مصادر الأدب العربيّ اللاحقة قد اعتمدته في أخبار الأيّام. أمّا الفرضيّة فهي أنّ الأخبار شبه التاريخيّة تنطلق ضرورة من المتكلّم وخاصّة إذا تعلّق الأمر بوقائع حربيّة لا بدّ لها في أصل نشأتها من أن تتشكّل بضمير المتكلّم. على أنّ ما وصلنا من أخبار أيّام العرب لا ينهض كلّه شاهدا على ذلك، إذ كثيرا ما تُصطنَع للمتكلّم فيها ضروب مختلفة من الأقنعة تكاد تعفّي على آثاره. فنحن لا نجد في كتاب أبي عبيدة يوما واحدا مرويّا كلّه بضمير المتكلّم. ولكنّنا نظفر بضمير المتكلّم في شذرات مسوقة على لسان الشخصيّات حينا وفي أقوال الرواة الذين اضطلعوا بنقل أخبار الأيّام لاحقا حينا آخر.

وإذا كان من العسير علينا أن نحدّد جميع الرواة ونَقَلة الأخبار الذين ورد ذكرهم في كتاب "النقائض"، وأن نستشفّ ضروب العلاقات التي تربط بينهم، وما تنطوي عليه من مواقف ونزعات وعصبيّات، فإنّ حصر المدوّنة في

---

[1] أبو عبيدة معمر بن المثنى: شرح نقائض جرير والفرزدق، تحقيق أنطوني آشلي بيفان، مطبعة بريل، ليدن، ج1، 1905، ج2، 1907، ج3، 1908–1912. ولما كانت الصفحات تصاعدية في هذه الطبعة فسنكتفي في الهوامش بذكر الصفحة دون الجزء.

أيّام العرب على وجه الخصوص قد يساعدنا على تبيّن عدد من المسالك التي يمكن أن تقدّم لنا بعض عناصر الجواب عن الأسئلة التي يثيرها هذا البحث.

إنّ قسمًا كبيرًا من الأيّام الواردة في كتاب "النقائض" لا يُنْمَى إلى راوٍ بعينه وإنّما هو حديث بضمير الغائب، تُذكَر فيه الأحداث وتقدّم الشخصيّات، إلاّ أنّ العون الذي يضطلع بهذه المهمّة غير محدّد، وهذا شأن يوم الجونين، ويوم المرّوت، ويوم الصمد، ويوم طلحات حومل، ويوم السباقين، ويوم عاقل، ويوم نقا الحسن، ويوم أعيار، ويوم بزاخة، ويوم هراميت وغيرها. إنّ الراوي في هذه النصوص غائب متخفّ، ومع ذلك فإنّ تخفيه لا يزيده إلا عِلْمًا بظواهر الأمور وبواطنها. فإذا نحن تساءلنا عن السرّ الكامن في ترك هذه النصوص غيرَ محدّدة المصدر، استطعنا أن نمسك بشيء من الجواب في جانبين: أوّلهما تاريخيّ وهو يتّصل بأدب أيّام العرب الذي تشدّه إلى الأدب الشعبيّ أواصر متينة. وحين نردّ أيّام العرب إلى أصلها الشعبيّ فإنّنا نؤكّد أنّها أدب جماعيّ تداولته الأفواه واختلطت فيه الأصوات حتى أصبح رصيدًا مجهول المؤلّف يعسر على الإنسان أن يجازف بنسبته إلى راو أو مجموعة من الرواة محدّدين. وثانيهما: وظيفيّ يتمثل في أنّ ترك الراوي غُفلاً يجعل ما جاء في النصّ غيرَ متوقّف على وجهة نظر معلومة، وإنّما هو حقيقة لا تحتاج إلى سند يدعمها ولا إلى راو يضفي عليها مصداقيّة. إنّ ورود قسم من أيّام العرب دون ذكر لأسماء الرواة الذين تناقلوها يجعلها تبدو في صورة الحديث المطلق، ومن ثَمّ فإنّها خطاب سلطة، إذ هي لا تقدّم النسبيّ وإنّما تنطق بلسان الحقائق التاريخيّة التي لا يتطرّق إليها الشكّ.

مقابل هذا نجد أيّامًا يضطلع بروايتها أشخاص معيّنون. فيوم جَدود يرويه اليربوعيّ، ويوم الفروقَين يرويه سعدان بن المبارك عن أبي عبيدة، ويوم النباج وثيتل يرويه أبو عبيدة. وهؤلاء الرواة، كما لا يخفى، متأخّرون عن زمن الأحداث. كما نجد أيّامًا أخرى يُثبَت في بدايتها سند مفصّل متعدّد شأن يوم أعشاش وهو يبدأ بـ "وكان من قصّة هذا اليوم ما حكاه الكلبيّ عن المفضّل بن محمّد عن زياد بن علاقة التغلبيّ أنّ أسماء بن خارجة الفزاريّ حدّثه بذلك قال"[1]. ويبدأ يوم الغبيط بـ "قال أبو عبيدة: وأمّا حديث يوم الغبيط فإنّ سليطًا وزَبّانَ الصُّبَيريّ وجَهْمًا السليطيّ قالوا"[2]. علينا أن نؤكّد أوّلاً قلّة هذا النوع من الأسانيد المدقّقة المضبوطة في بدايات الأيّام، كما أنّ هذه الطريقة في الإسناد لا يمكن أن يُنظَر إليها بمعزل عمّا راج في أدب الحديث النبويّ الذي كان رواته شديدي الحرص على تسمية مختلف الحلقات التي مرّ بها الحديث، متشدّدين في أعيان الرواة وفي ضروب العلاقات الواصلة بينهم. على أنّ هذه القلّة ينبغي أن تقودنا إلى نتيجة هي أنّ هذه الأسانيد المدقّقة ليست سمة مميّزة لأيّام العرب كما جاءت في كتاب "النقائض"، وإنّما هي يمكن أن تنهض دليلاً على أنّ هذا الضرب من الأدب قد أخذ يسعى شيئًا فشيئًا إلى أن يفيد من الأجناس السائدة وأن يعمل على أن تكون له منزلة في المنظومة الثقافيّة في العصر الذي أنتج فيه.

وعدم تمحّض الأيّام للتحرّر من الإسناد ولا للتقيّد به دليل في رأينا على أنّها كانت تمرّ بمرحلة انتقاليّة لم تتبلور فيها ملامحها بعد. على أنّ هذا الذي ذكرنا لا يمثّل إلاّ السمتين المتقابلتين المتطرّفتين في الأيّام. ذلك أنّنا نجد مناطق تماسّ كثيرة بينهما يمكن أن نشير منها إلى حالات ثلاث:

1. ينطلق اليوم من راو مجهول ثم يؤول إلى راو معلوم، وهذا شأن يوم ذي طلوح الذي يتوسّطه عميرة بن طارق وهو راوٍ مندرج في الحكاية، ويوم شعب جبلة الذي انطلق بلا راوٍ، إلاّ أنّ السرد انتقل إلى بشر بن عبد الله الكلابيّ، ثم آل إلى علماء بني عامر.
2. المحافظة على الإسناد شكلاً وعدم الامتثال لشروطه واقعًا، وهذا كثير نلمسه في إحالات على علماء العرب (يوم ذي قار)، أو العلماء (يوم الكلاب) أو المشيخة (يوم النسار) أو علماء بني عامر (يوم شعب جبلة)، وفي عبارات عامة من قبيل "زعمت بنو فزارة" (حديث داحس) و"زعمت بنو قيس" (يوم الوقيط) و"زعمت بنو ثعلبة" (يوم الإياد).

---

[1] م. ن. ص 75.
[2] م. ن. ص 313.

3. تعدّد الرواة في اليوم الواحد، شأن يوم رحرحان، وفيه نجد: "قال أبو الوثيق[...] وأمّا درواس[...] وأمّا أبو ثعلبة[...] وأمّا درواس[...] وأمّا أبو الوثيق"[1].وفي يوم النسار ننطلق من "قال أبو عبيدة: حدّثني قيس بن غالب [...] وشيخ علاّمة [...] وأبو مرهب رتبيل [...] وغير واحد من علماء قيس وبني أسد"، ثم إذا تقدّمنا وجدنا "وحدّثني درواس"، ثم "وحدّثني ابن شفاء المنافي"، ثم "قال أبو عبيدة: قالوا"، ثم "قال أبو الغرّاف الضبّيّ"، ثمّ "قال أبو مرهب"، ثمّ "قال أبو عبيدة: وحدّثني قيس بن غالب"، ثم "قال أبو عبيدة وزعم أبو الغرّاف الضبّيّ وأبو نعامة العدويّ وأبو الذيّال"، ثمّ "قال بنو أسد وغطفان"، ثم "زعمت بنو كعب"[2]. وهذه الصورة التي تتداخل فيها الأسماء والأصوات هي أقرب صور الأيّام من حقيقتها المشدودة إلى المشافهة والتي لا تخضع لمسار سرديّ محدّد، وإنّما هي مثال واضح عن تزاحم البدائل السرديّة التي تدلّ من جهة على هيمنة الذاكرة على هذا الأدب، ومن جهة أخرى على سيطرة الاعتبارات العصبيّة فيه. ولعلّ هذا ما يفسّر لنا طبيعة الرواة إذ يجمع بينهم في الغالب أمران: الاندراج في الحكاية، والانتماء إلى مجموعة محدّدة، وهاتان النقطتان تحيلان على وظائف الرواة وعلاقتهم بدلالات الأيّام.

أ- وظائف رواة الأيّام في كتاب "النقائض".

لا شكّ في أنّ الإسناد يضطلع في الأيّام بالدور الذي يضطلع به في الحديث النبويّ والأخبار، إذ أنّه يبعث على الإقرار بصدق الأيّام من حيث هي أقوال. ذلك أنّ الإسناد يثبت وجود اليوم باعتباره أقوالاً لا باعتباره حوادث. ومن هذه الناحية فإنّ ذكر الرواة سواء أجاء في صورة مدقّقة أم في صورة عامّة مبهمة، يرمي إلى طمأنة السامع أو القارئ إلى أنّ هذا اليوم واقع بوصفه حديثًا متداولاً وإن لم يكن هذا الحديث عاكسًا للوقائع على نحو أمين. وهذه الوظيفة الرئيسيّة تتجسّد من خلال تعدّد الرواة حين لا يلتقون في بؤرة واحدة، بل تتقاطع أقوالهم مكوّنة جوانب مختلفة أو حتّى متناقضة لحدث يُفترض أن يكون واحدًا، إلاّ أنه يصلنا في صيغ شتّى تهزّ ما يمكن أن

[1] م. ن. ص ص 226– 228.
[2] م. ن. ص ص 238– 240.

يستقرّ في الذهن من علاقة أحادية بسيطة بين الخطاب والمرجع الذي يحيل عليه. ويمكن أن نتّخذ من يوم رحرحان شاهدًا على ذلك، ففيه روايتان عن أسر بني عامر معبدًا بن زرارة تنسب أولاهما إلى أبي الوثيق وتذكر أنّ معبدا جرح في المعركة، وتنسب الثانية إلى درواس بن هُنَيّ وفيها أنّ معبدًا كان معتزلاً قومه ولم يشارك في المعركة. أمّا موت معبد فيذكر درواس أنّ سببه أنّ بني عامر سَقَوْه الماء وضارّوه (أي ضاموه وضايقوه) حتى مات في الأسر. في حين يقول أبو الوثيق إنّ معبدا هو الذي امتنع عن الأكل حتّى هلك.

إنّ الراوي يغدو في هذه الحالة صانعًا لقصّة أو لفصل من فصولها لا مجرّد سلك واصل بين الأحداث ومتلقّيها. وبهذا نصل إلى نتيجة مهمّة هي أنّ حضور الراوي في الأيّام لا يعزّز صبغتها التاريخيّة بقدر ما يؤكّد مسحتها الأدبيّة الإبداعيّة. وهذه السمة تجعل النصّ غير مغلق أي أنّه معرّض أبدًا للتغيير والتنقيح والزيادة، فهو نصّ غير مستقرّ استقرارًا نهائيًّا. ومن جهة أخرى فإنّ لنصوص الأيّام خصيصة أساسيّة هي أنّها متعدّدة الأصوات، أي أنّها لا تقدّم لنا من خلال موقع واحد ووجهة نظر واحدة وإنّما تأتينا من منظورات متعدّدة، فتبدو في هيئات مختلفة.

إنّنا نطلّ على هذه الأيّام من خلال راوٍ مندرج في الحكاية تارة وراو خارجيّ تارة أخرى، إلاّ أنّنا لا نعثر على يوم واحد جاءنا كاملاً من خلال الراوي المندرج سواء أجاء بضمير المتكلّم أم بضمير الغائب. وهذا التعدّد في الأصوات يكوّن ما يشبه المرايا المكسَّرة التي لا يتمثل دورها في عكس الوقائع بقدر ما يتمثل في تقديم صورة عن هذه الوقائع فنّيّة تضطلع بوظيفة جماليّة.

ب- علاقة الرواة بدلالات الأيّام.

من الجليّ أنّ أيّام العرب الجاهليّة تصوّر العهد الإسلاميّ الذي أُنتِجت فيه أكثر ممّا تصور العهد الجاهليّ الذي تتّصل به الأحداث. ومردّ هذا إلى سطوة المخيال الإسلاميّ عليها وعلى ناقليها. وفي هذا السياق فإنّ حيّزًا كبيرًا من الصراع القبليّ والمذهبيّ في الأيّام يحمل أصداء من مشاغل الرواة الذين تعاوروا هذه الأيّام وتداولوها. فلا شكّ إذن في أنّ تعدّد الرواة جاء

استجابة لتعدّد السامعين والقرّاء، ممّا يجعل الراوي الأخير يسعى إلى إيجاد نوع من التعادل بين مختلف الاتّجاهات والانتماءات، حتّى إن تشريح خطاب هذه النصوص يكشف لنا عن أصوات المتكلّمين التي طُمست عَنوة بفعل تغيّر صياغات الأيّام وتنقّلها بين الانتماءات وخدمتها لغايات متحوّلة متبدّلة عبر الزمان والمكان.

ومن هذه الزاوية يضطلع الرواة بدور أساسيّ في الإيحاء بهذه الدلالات. فإذا نحن عدنا إلى يوم رحرحان وجدنا أبا الوثيق ميّالاً إلى تبرئة ذمّة بني عامر وإدانة معبد بن زرارة وأخيه لقيط، إذ صوّر معبدًا جريحًا وهذا يدلّ على مشاركته في القتال، ثم ذكر أنّه هو الذي رفض الأكل احتجاجًا على امتناع أخيه عن مفاداته، في حين أنّ درواسَ بنَ هُنيّ يجنح إلى إدانة بني عامر فيجعل أسرهم معبدًا غير مشروع لأنّه لم يقاتلهم، ويجعل موت معبد ناتجًا عن تعسّف بني عامر عليه، إذ أنّهم لمّا رأوا عزوفه عن الطعام "عمدوا إلى شظاظ (عود أو خشيبة عقفاء) فأولجوه في فيه فشَحَوْا به فاه (فتحوا) ثم أوجروه (صبّوا في حلقه) اللبنَ رغبة في فدائه وكراهيةً أن يهلك، فلم يزل حتى هلك في القِدِّ"[1].

وإذا عدنا إلى شخصيّتي هذين الراويين وجدنا أنّ أبا الوثيق هو أحد بني سلمى بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة، وأنّ قائد بني عامر في هذه المعركة هو ربيعة الأحوص بن جعفر بن كلاب، وأنّ بني عامر هم بنو عامر بن صعصعة وهم بطن من هوازن التي تنتمي إلى قيس عيلان. وأبو الوثيق هذا معاصر لأبي عبيدة بدليل ما جاء في "النقائض": "وقال أبو الوثيق: قال عامر بن الطفيل يذكر ميتة معبد (قال أبو عبيدة فقلت له: أوَ أدرك عامرُ يومئذ فقال: لا، وإنّما ركضت به أمّهُ يوم جبلة، ولكنّه فخر بعد ذلك فقال"[2]. أمّا درواس بن هنيّ فنجد في يوم أوارة تحديدا لانتمائه: "قال أبو عبيدة: فحدّثني درواس أحد بني معبد بن زرارة"[3]، ومعبد بن زرارة أحد بني دارم وهم تميميّون

[1] م. ن. ص 228.
[2] م. ن. ص 229.
[3] م. ن. ص 653.

كانوا طرفًا رئيسيًا في يوم رحرحان. والشاهد السابق يدلّ أيضًا على أنّ درواسًا معاصر لأبي عبيدة.

إنّ هذا المثال يبيّن لنا أهمّيّة رواة الأيّام وضرورة أن نوليهم حقّهم من البحث إن نحن أردنا أن نفهم التيّارات الخفيّة المتحكّمة في هذا الضرب من الإبداع. إنّ هذه الأهمّيّة تسمح لنا أن نخرج بنتيجتين: أولاهما الاطمئنان إلى ما ذهبنا إليه من أنّ الأيّام أكثر دلالة على البيئة التي أنتجت فيها منها على البيئة التي تزعم أنّها تتحدّث عنها، وثانيتهما أنّ أسانيد الأيّام وذكرَ أسماء ناقليها ورواتها المتكلّمين فيها وطمسَ آثارهم أحيانا ليست عناصر زائدة جيء بها للتزويق، وإنّما هي مصطلح قرائيّ أساسيّ إن نحن تقصّيناه وقفنا على جانب من جوانب الدلالات التي تعبّر عنها الأيّام لا بوصفها تصويرًا محايدا للحروب والمناوشات بل من حيث هي تعبير دقيق عن مواقف ممّا كان يعتمل في البيئة الاجتماعيّة والفكريّة التي أفرزتها.

ولعلّ ما يؤكّد أهمّيّة هذا الملمح أنّنا نجد في "كتاب النقائض" ظاهرة متكرّرة تعترض سبيلنا حيثما سرنا وهي أنّ الحدث الواحد يرد في روايات متعدّدة وفي مواضع من الكتاب متقاربة أو متباعدة. وتختلف هذه الروايات طولاً وقصرًا، كما تتنوّع الدوافع التي تؤدّي إليها والسياقات التي ترد فيها والوظائف التي تضطلع بها. وأبسط مظاهر هذا التعدّد ما يمكننا أن نصطلح عليه باسم البدائل السرديّة، ونعني بها تلك الحالات التي تلتقي فيها روايتان في الجزء الأكبر منهما، إلاّ أنّهما تفترقان في بعض التدقيقات. على أنّ هذه الفويرقات لا تكون في مواضع رئيسيّة يترتّب عليها اختلاف في المسار العامّ لليوم، فهي لا ترد في مواضع الخيار. ومن هذا النوع ما نجده في حديث الشقيقة عند ذكر عاصم بن خليفة الصُّباحي قاتل بسطام: "فيقال له ما تصنع بها [القناة] يا عاصم، فيقول أقتل بها بسطامًا (وقال بعضهم أقتل بها سيّد بكر) [...]. فلحق وقد سبقه الفرسانُ وقد شدّ حديدة على عارضة هودج (وقال بعضهم ركّبها في قناة)"[1]. ومن هذا النوع أيضًا ما يظهر عند الاختلاف

[1] م. ن..ص 23.

في اسم شخصيّة. والشأن في هذه الحالة أنّ الشخصيّة المختلَف في اسمها تكون ثانويّة. وهذا ما نجده في يوم الإياد عند الحديث عن قتلى المعركة: "وقتَل الدَّعّاءُ عفّانَ بنَ أبي مُلَيل (وقال آخر بل قتله الضُريس بن مسلمة أخو بني أبي ربيعة)"[1].

على أنّ الاختلاف بين الروايات في النصّ الواحد يمكن أن يتجاوز الحدث الجزئيّ أو كيفيّة إنجازه واسمَ الشخصيّة التي قامت به إلى الحدث نفسه. ومن هذا ما جاء في حديث داحس من أمر قِرواش بنِ هنيّ حين أسره بنو عبس:

"فدفعوه إلى بني بدر فتقلوه، وكان قَتَل حذيفة. وزعم بعض الناس أنّهم دفعوه إلى بني سُبَيْع فقتلوه بمالك بن سبيع وكان قَتَلَ مالكَ بن سُبيع الحكمُ بن مروان بن زنباع"[2]. إنّ كلّ خيار من هذين الخيارين يصل بين الحدث وقصّة مخصوصة ويوظّف الكلام في سياق محدّد.

إنّ هذا الاختلاف في الروايات وإن وُجد في "كتاب النقائض" يظلّ ظاهرة محدودة إذا ما قورن بما حفل به الكتاب من تعدّد في روايات اليوم الواحد. وهذا شأن أيّام كثيرة منها يوم ذي طلوح، ويوم جدود، ويوم نقا الحسن، وحديث النسار، ويوم أعشاش، ويوم الغبيط، ويوم الفروقين، ويوم إراب، ويوم صوءر، ويوم شعب جبلة. ومن الطريف أنّ محقّق "كتاب النقائض" أنطوني آشلي بيغان جعل قسمًا من الجزء الثاني في صورة ملحق بعنوان "الروايات الموازية" (Parallel Narratives)[3] جمع فيه ما انفردت به مخطوطة لندن دون مخطوطتي أوكسفورد وستراسبورغ، فكان مجموع هذه الأيّام سبعة عشر يومًا.

وحين ننعم النظر في هذه الروايات نلاحظ أنّها تنقسم إلى قسمين:

القسم الأوّل: تكون أوجه الاختلاف فيه بين الروايات قليلة وفي بعض الأحيان تتّفق الروايتان في العبارة إجمالاً وينحصر الاختلاف في جوانب ضئيلة

---

1 م. ن. ص 583.
2 م. ن. ص 151.
3 م. ن. ص ص 1056– 1099.

الأهمّيّة. ويمكن أن نتّخذ يوم ذي طلوح شاهدًا على ذلك[1]. ففي الرواية الأولى كان اسم الشخصيّة: عميرة بن طارق بن طارق بن ديسق أحد بني ثعلبة بن يربوع، فأصبح في الثانية عميرة بن طارق بن قصبة بن أزنم بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع. فالاتفاق حاصل في البداية والنهاية (الاسم والنسب) مفقود فيما بينهما.

أمّا سبب الخصومة فهو في الرواية الأولى: "فقال أبجر لعميرة وهما في بيت عميرة: إنّي لأرجو أن آتيك بابنة النطف. فقال عميرة ما أراك تبقي عليّ من أن تحربني وتشيننني"[2]. وفي الرواية الثانية: "فأتى أخته مُرَيَّة امرأةَ عميرة يزورها فقال لها: إنّني لأرجو أن آتيك بابنة النطف امرأة عميرة. وسمعه عميرة قال: ما أراك تبقي عليّ حتى تحربني وتسلبني"[3]. وإذا كنّا نجد آثار التصحيف في "تسلبني" و"تشيننني" فإن بين الروايتين اختلافًا أكبر في منطق الأحداث يدلّ على اضطراب واضح في أولاهما.

ومن وجوه الاختلاف بين الروايتين الإضافة. ففي الرواية الثانية أنّ عميرة فرّ من حرقصة الذي وُكِّلَ به: "فاستحيى حرقصة من أن يذكر أمره لأحد"[4]. وفي الأولى: "فاستحيى حرقصة أن يذكر أمره لأحد حتّى جَنّ عليه الليل وتحدّث به الرجال من قِبل النساء، فأقبلوا على حرقصة فقالوا: ويلك ما صنع الرجل؟ قال: ما أظنّه إلاّ ذهب. قالوا: إن تكن في شكّ فإنّا مستيقنون"[5]. وهذا المثال يشهد على أنّ الخبر الثاني سليل الخبر الأوّل إذ هو قائم على التوسّع في ما جاء مقتضبا في الرواية الأولى.

إنّ النظر في هذه الروايات المختلفة يصبح ضروريًا للتركيب بينها والخلوص إلى النصّ الأصليّ الذي أَخذت معالمه تغيب. ورغم ما يبدو من كثرة الاختلافات فالمرجّح في هذه الحالات أنّ الأصل الذي تؤول إليه الروايات واحد.

---

1 م. ن. ص 47، ص781.
2 م. ن. ص 47.
3 م. ن. ص ص 781–782.
4 م. ن. ص 48.
5 م. ن. ص 48.

القسم الثاني: وفيه تكبر الشقة بين الروايات ممّا ينهض شاهدًا على أنّ أصولها متعدّدة. والدرجة الأولى في هذا النوع هي ما نجده في تجاور الروايات في النصّ الواحد. ولعلّ حديث داحس يفيدنا من هذه الجهة، إذ أنّ الرهان الذي سبّب الخصومة بين قيس بن زهير العبسيّ وحذيفة بن بدر الذبيانيّ وأدّى إلى قيام حرب داحس قد اختُلِف في أمره، وجاءت فيه روايات ثلاث تبدأ بقوله: "وزعم بعضهم أنّ ما هاج الرهان"[1]. والناظر في هذه الروايات الثلاث يلاحظ بيسر أنّها ترتدّ إلى أصول مختلفة. فالأولى تجعل السبب أنّ قيسًا غضب على قينة لحذيفة كانت تغنّي عند بعض الملوك فشقّ رداءها وشتمها، ثمّ جاء حذيفة يسترضيه فنشب بينهما خلاف أدّى إلى الرهان. والرواية الثانية تجعل السبب في شخص من بني جوشن "وهم أهل بيت شؤم" زار حذيفة فحطّ من قيمة خيله، ورفع من شأن خيل قيس. والرواية الثالثة تجعل الرهان بين شخصين آخرين أحدهما من بني عبس والآخر من بني بدر وقد حضره قيس بن زهير وحُذيفة بن بدر. وهذه الروايات تسير في اتّجاه واحد هو تبرئة ذمّة قيس وتحميلُ الطرف الآخر المسؤوليّة. إلاّ أنّ هذا الطرف الآخر كان تارة حذيفة، وتارة الجوشن، وتارة ثالثة الرجلين المنتميين إلى بني عبس وبني بدر. وفي كلّ حالة تدور القصّة على قطب دلاليّ مخصوص: جنسيّ طبقيّ مداره على القينة، أو اجتماعيّ عُبِّر عنه بالشؤم، أو ثقافيّ أخلاقيّ جاء في صورة كره الرهان والتمسّك بالحياد، ممّا يؤكّد تعدّد منابع هذه الروايات وأهدافِها. ومن شأن هذه القراءة أن تدفعنا إلى تأكيد فرضيّة البحث التي قدّمنا وأن تدعونا إلى أن نقرأ أدب الأخبار في طوره المبكّر هذا بوصفه فنّ الأقنعة.

إنّ تعدّد الروايات الذي نهتمّ به ههنا لا يشمل الحالات التي تتطابق فيها روايتان أو أكثر، من قبيل يوم ذي طلوح الذي جاءنا في روايتين طويلتين متشابهتين[2]. ولا يشمل الحالات التي نجد فيها النصّ مسوقًا في صيغتين

---

[1] م. ن. ص ص 85–86.
[2] م. ن. ص ص 117–781.

إحداهما مختصرة والأخرى مطوّلة، وهذا شأن يوم نقا الحسن[1]، ويوم الصرائم[2]، ويوم الفروق[3] وغيرِها. بل إنّ تعدّد الروايات الذي نصرف اهتمامنا إليه هو ذلك الذي يوفّر لنا صيغتين على الأقل بينهما اختلاف في الخطة ينمّ عن اختلاف في المنطلقات وفي الأهداف.

وبإمكاننا أن نرصُد جانبا من هذا التعدّد في صيغة نصطلح عليها بالتكامل. ولا نجد هنا تناقضًا بين الروايتين، وإنّما نجد اختلافًا، إذ تشترك الروايتان في أمور وتختلفان في أخرى. ويمثل يوم طخفة نموذجًا أوّليًا مفيدًا من هذه الجهة، فقد خُتمت الرواية الأولى بـ: "وعادت الردافة إلى ابن عتّاب بن هرميّ، فلم تزل لهم حتّى مات الملك"[4]. أمّا الرواية الثانية فتضع الردافة في سياق عامّ، تقول: "أوّل من رَدِفَ عتّاب بن هرميّ بن رياح بن يربوع، ثم عوف بن عتّاب، ثم يزيد بن عوف على عهد المنذر بن ماء السماء [..] فلم تزل الردافة في بني يربوع حتى قَتَل كسرى أَبَرْويه النعمانَ الأصغر وهو النعمان بنُ المنذر بنِ المنذر بن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر. فأهل اليمن يقولون نصر بن ربيعة بن الحرث بن مالك بن عمم بن نُمارة بن لخم. وأمّا علماء أهل العراق فيقولون نصرَ بنَ الساطرون بنِ السيطرون ملك السريانيّين وهو صاحب الحظْر جَرْمقانيٌّ من أهل الموصل من رُستاق يدعى باجَرمَى [...]. قال وكانوا عمّال الأكاسرة، ولم يكن أحد من العرب أكثرَ غارة على أهل مملكتهم من بني يربوع. فصالحوهم على أن يجعلوا لهم الردافة وأن يكفّوا عن الغارة على أهل العراق. وكانت الردافة أن يَجلس الملك ويَجلسَ الردفُ عن يمينه، فإذا شرب الملك شرب الردف قَبل الناس، وإذا غزا الملك جلس الردف في مجلسه وخلّفه الملكُ على الناس حتى يرجع من غزاته"[5].

ومن الجليّ أنّ الرواية الثانية تُخرِجُ إلى حيّز التصريح ما اكتفت الرواية الأولى بالإيماء إليه. ومن ذلك أنّ الإبهامَ في المدى الزمنيّ للردافة

---

[1] م. ن. ص 190.
[2] م. ن. ص ص 248–336.
[3] م. ن. ص ص 98–420.
[4] م. ن. ص 68.
[5] م. ن. ص ص 298–299.

والغموضَ في الحديث عن موت الملك قد اتّضح أمرُهما اتّضاحًا تامًّا في الرواية الثانية. وأضيفَ إلى ذلك شيئان: الإشارة إلى الاختلاف في نسب المناذرة، والتعريفُ المفصّل بمهامّ الرديف. إنّ الرواية الثانية – في هذه الحالة – إكمال للرواية الأولى وإيضاح لغوامضها، وإصلاح لبعض ما سيق فيها من معلومات.

على أنّ هذا التكامل ربّما اتّخذ صورة أكثر تعقّدًا حين تصبح المعلومات المضافة فاعلة في خطّة اليوم، ودالّة على موقف الراوي، ويمكن أن نعتبر يوم جدود مثالاً واضحًا عن هذه الصيغة. وإذا نحن وقفنا عند القسم الأول من الروايتين رأينا أن الإضافات الكبرى ثلاث:

1. اسم الحوفزان: الحارث بن شريك الشيباني في الرواية الأولى[1]، والحارث بن شريك بن عمرو وعمرو هو الصُلب بن قيس بن شراحيل بن مرّة بن همّام بن مرّة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عُكَابة بن الصعب بن علي بن بكر بن وائل في الرواية الثانية[2].

2. منطلقات المعركة وغاياتها: فقد سكتت الرواية الأولى عن منطلقات المعركة ولم تدقّق أهدافها فقالت: "وأمّا يوم جدود فإنّ الحوفزان [...] أغار على بني تميم هو وأبجر بن جابر العجليّ، خرجا متساندين يريدان الغارة على بني تميم"[3]. وأمّا الرواية الثانية فقد كشفت ما كان مستورًا فقالت: "وكان من حديث جَدود أنّ الحوفزان [...] كانت بينه وبين سليط بن يربوع موادعة، فهمّ بالغدر بهم، وجمع بني شيبان وذُهلاً واللهازم وعليهم حُمران بنُ عبد عمرو بنِ بشر بنِ عمرو بن مرثد، [ثمّ] غزا وهو يرجو أن يصيب غرّة من بني يربوع"[4].

[1] م. ن. ص 144.
[2] م. ن. ص 326.
[3] م. ن. ص 144.
[4] م. ن. ص 326.

3. تفاصيل المواجهة الأولى: تكتفي الرواية الأولى بالإشارة إلى نتيجة المرحلة الأولى من الغزو: "فمرّوا [الحوفزان وأبجر] ببني يربوع وهم بجدود: فلما رأوهما نَهَدوا إليهما وحالوا بينهما وبين الماء وأرادوا قتالهما. فقال لهم الحوفزان: والله ما إيّاكم أردتُ ولا لكم سَمَوت، وإنّما أردتُ بني سعد بنِ زيد مناة. فهل لكم في خمسمائة جُلّة وفضلِ ما معنا من ثوب، ولكم الله أنّا لا نروّع حنظليّا ولا نقاتله، وخلّوا بيننا وبين بني سعد. فخلّوا له وجهه وصالحوه ثلاث سنين وأخذوا منه جِلال التمر"[1]. أمّا الرواية الثانية فتقول: "حتى إذا أتى [الحوفزان] بلادَ بني يربوع نَذِر به عتيبة بنُ الحارث بنِ شهاب، فنادى في بني جعفر بنِ ثعلبة، فحالوا بين الحارث بن شريك وبين الماء، والحوفزان في جماعة من أفناء بكر بن وائل. فقال الحارث لعتيبة: إنّي لا أرى معك إلاّ بني جعفر وأنا في طوائف بن بكر بن وائل. والله لئن ظفرتُ بكم لا تعادّون عِمَارَةً من بني تميم أبدا (والعمارة الحيّ العظيم)، ولئن أنتم ظفرتم بي ما تقتلون إلاّ أقاصي عشيرتي. والله ما لكم سَمَوت ولا عرفتم الموادعة التي بيننا وبين إخوتكم بني سليط. فهل لكم أن تسالمونا وتأخذوا ما معنا من التمر وتخلّوا سبيلنا. فوالله لا نروّع يربوعيًّا أبدًا. فأخذ عتيبة ما معهم من التمر وخلّى سبيلهم"[2].

إنّ الناظر في هذه الفروق بين الروايتين يسترعي انتباهه أنّ الثانية أكثر جنوحًا إلى التفصيل من الأولى. فهي تدقّق نسب الحوفزان وكأنّها تشير بذلك إلى أنّ الإدانة لا تقف عند الرجل وإنّما تشمل قومه، وتذكر العلاقة "القانونيّة" التي بينه وبين سليط بن يربوع، إذ هما يترابطان بعهد يقضي بعدم اعتداء أحدهما على الآخر هو الموادعة، كما أنّها تذكر المقصد الدفين للحوفزان وهو نقضُ الاتّفاقِ والغدرُ. وكذلك الشأن في الاتّفاق الثاني الذي يقضي بترك السبيل مقابل الجزية وتجديد العهد، وقد

[1] م. ن. ص ص 144–145.
[2] م. ن. ص 326.

استُخدمت فيه طريقة للإقناع فيها الترغيب وفيها الترهيب، خلافاً للرواية الأولى التي اقتصرت على الترغيب.

إنّ هذه الأمثلة التي استقيناها من يومي طخفة وجدود تدلّ دلالة واضحة على أنّ تتبّع الروايات المختلفة لليوم الواحد يمكن أن يكون أمراً مفيداً في معرفة خلفيّات الأحداث وطرائق تحقّقها. وهذه الجوانب جميعًا تقودنا إلى الكشف عن توظيف الرواة لهذه الزيادات التي تجعل أخبار الأيّام مفتوحة لضروب شتى من الإضافات. وهذه خصيصة من خصائص الرواية الشفويّة ظلّت عالقة بالأيّام حتّى بعد تحوّلها نصًّا مكتوبًا. ولعلّ هذه السمة ممّا يميّز أدب الأيّام الذي ظلّ في صيغته المكتوبة عاكسًا لمميّزات تحوّله الشفويّ، لأنّه وإن ثُبِّتَ في عصر التدوين فإنّ نشأته وسيرورته ترتدّان إلى عصور المشافهة.

فإذا تجاوزنا هذه الصيغة الأولى من تعدّد الروايات – وهي التي اصطلحنا عليها بالتكامل – وجدنا صيغة أخرى نطلق عليها اسم الاختلاف. ولعلّ أوضح مثال من هذا الاختلاف ما نجده في القسم الأخير من "كتاب النقائض" وهو القسم الموسوم "بالروايات الموازية" عند الحديث عن يوم الغبيط[1]. وفي هذه الرواية جمع الراوي – على سبيل الخلط – بين يومين هما يوم الغبيط[2] ويوم الإياد[3]. ولعلّ ما أوقعه في هذا الخلط أنّ اليومين دارا بين بني شيبان وهم من بكر بن وائل بقيادة بسطام، وبين قبائل وبطون من تميم. إلاّ أنّ يوم الغبيط كان بموضع يقال له بطن فلج، أمّا يوم الإياد فدارت وقائعه في مكان يقال له الحديقة. وما يميّز بينهما – رغم انهزام الشيبانيّين فيهما معا – هو أنّ عتيبة كان مشاركًا في يوم الغبيط إلى جانب بني مالك، إلاّ أنّه كان قد قضى نحبه حين وقع يوم الإياد.

---

1 م. ن. ص 1068.
2 م. ن. ص 313.
3 م. ن. ص 580.

ومن وجوه الاختلاف بين الروايات ما نجده عند تتبع يوم أعشاش[1] ويوم الغبيط[2] في روايته الأصليّة. فقد صُوّرت المعركة في يوم أعشاش بين بني شيبان وبني مالك بن حنظلة. وما اشتراك عتيبةَ بنِ الحارث بن شهاب فيها إلاّ لأنّه كان نقيلا في بني مالك "ليس معهم يربوعيّ غيره"[3]. أمّا يوم الغبيط فإنّه يجعل المواجهة بين الشيبانيّين وبني مالك عرضيّة، إذ يبدأ على هذا النحو: "غزا بسطام بن قيس ومفروق بن عمرو والحارث الحوفزان بن شُريك بلادَ بني تميم، فأغاروا على بني ثعلبة بن يربوع، وثعلبةَ بنِ سعد بن ضبة، وثعلبةَ بنِ عدي بن فزارة، وثعلبةَ بنِ سعد بن ذبيان، وكانوا متجاورين بصحراء فلج. فاقتتلوا فهُزمت الثعالب وأصابوا فيهم، واستاقوا إبلاً من نعمهم، قال ولم يشهد عتيبة ذلك اليوم لأنه كان نازلاً في بني مالك بن حنظلة بن مالك. ثم امترّوا على بني مالك (قوله امترّوا افتعلوا من المرور)، قال: وهم بين صحراء فلج وعُبيط المدرة فاكتسحوا إبلهم. قال: فركبت عليهم بنو مالك وفيهم عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعي وفرسانُ بني يربوع تأنَّفُ البكريّين"[4].

إنّ الناظر في هذين النصّين يلاحظ بيسر أنّ الاختلاف القائم بين الروايتين واضح في مستوى الخبر، إذ أنّ يوم أعشاش يجعل اليربوعيّين عنصرًا ثانويًا ويحصر البطولة في إحدى شخصيّاتهم وهي عتيبة. أمّا يوم الغبيط فهو يهمّش بني مالك وهم يرتدّون إلى تميم إلاّ أنّهم يتّصلون بفرع من فروعها هو زيد مناة، ويمثّل بنو دارم بطنًا أساسيًا من بطونها. ومقابل ذلك يتصدّر اليربوعيّون بمختلف بطونهم وعشائرهم وأبطالهم المشهد. ولا شكّ في أنّ هذا الاختلاف في الخبر وليدُ اختلاف في الرؤية والإيديولوجيا. وعلى هذا النحو فإنّ اختلاف الروايات ليس ظاهرة عفويّة في أدب الأيّام وإنّما هو محلّ تتقاطع فيه الانتماءات والعصبيّات، وتغدو كلُّ وجهة مولّدة لصيغة وقائمة على استراتيجيا مخصوصة.

---

1 م. ن. ص 75.
2 م. ن. ص 313.
3 م. ن. ص 75.
4 م. ن. ص 313.

وقد يبلغ الاختلاف بين الروايات شأوا بعيدًا حتّى تختلطَ فيه العصبيّتان الكبريان: العدنانيّة والقحطانيّة. ومثال ذلك روايتا يوم خزازى. فقد جاء في أولاهما[1] أنّ هذا اليوم "كان للمنذر بن ماء السماء ولبني تغلب وقضاعة على آكلِ المُرار من كندة وعلى بكرِ بنِ وائل". أمّا في الرواية الثانية[2] فإنّ الوقعة تمّت بين مذحج وقبائل اليمن من جهة، وبين ربيعة ومضر وقضاعة من جهة أخرى. وواضح أنّ الرواية الأولى تحمل آثار الصراع الداخليّ بين العدنانيّين، لا، بل بين بني ربيعة وهم الأصل الذي يؤول إليه بنو تغلب (المنتصرون)، وبنو بكر بن وائل (المنهزمون). أمّا الرواية الثانية فتحصر الهزيمة في القحطانيّين، وتصوّر العدنانيّين متكاتفين، ممّا مكّنهم من إحراز النصر.

وعلى هذا النحو نكون قد بيّنا من خلال هذه النماذج من الروايات المتعدّدة ظاهرة ملازمة للأيّام تتمثّل في قيامها تارة على البدائل السرديّة البسيطة، وانطوائها تارة أخرى على صيغة عامّة تقدّم فيها الأحداث والشخصيّات من منظور آخر جديد. وليس من شكّ في أنّ تحوّل الأيّام هو تحوّل للأقنعة التي توضع في هذه النصوص على المتكلّم المفترض. وهي أقنعة تشفّ عن ذلك المتكلّم أكثر ممّا تخفيه. فكأنّها من حيث توهم بغيابه تدفع السامع أو القارئ دفعا إلى اقتفاء آثاره وتقصّي بصماته.

إنّ هذه الظاهرة لا تنحصر قيمتها في الدلالة على الملابسات التاريخيّة التي مرّت بها نصوص الأيّام في مسار تشكّلها وعبورها من طور المشافهة إلى طور التدوين، وإنّما تتجاوز ذلك لتصبح مصطلحًا قرائيًّا يبيح لنا – إن نحن ألممنا ببعض المعطيات الاجتماعيّة التي واكبت تحوّل هذه النصوص – أن نقف على الصراعات الكبرى التي كانت تعتمل في البيئة العربيّة الإسلاميّة. ومن ثمّ فإنّ أيّام العرب تجد موضعها في المنظومة الأدبيّة العربيّة، وفي اصطراع الأنساق الفكريّة والاجتماعيّة والإيديولوجيّة في القرون الهجريّة الأولى.

---

[1] م. ن. ص 887.
[2] م. ن. ص 1093.

المتكلّم في المراسلات السرديّة القديمة

صالح بن رمضان

كلية الآداب والفنون والإنسانيّات

جامعة منّوبة- تونس

في الأعوام الأخيرة يشهد اهتمام الدراسات العربيّة بمجال الرسائل الأدبيّة عامّة والعلاقات الرسائليّة خاصّة تطوّرا لافتا للانتباه، (يتّجه الدارسون إلى استعمال مصطلح العلاقات الرسائليّة بديلا عن الرسائل الأدبيّة، لأنّ هذه العلاقات تعتبر في مختلف اتّجاهات البحث السمة المميّزة للتحاور في الرسائل (ولا أقول الحوارية حتّى لا يلتبس المفهوم بالتعدد اللغوي في الرواية عند باختين)، وهي في الغالب علاقات دلاليّة تتمثّل في الاستقصاء والتكرار والتضادّ والسببيّة والتتابع والتماثل[1].

ولئن اتّصل تجاهل البحث العلمي في كثير من الدراسات الخاصّة بالرسائل وفيما نطالع من الإصدارات المتّصلة بهذا المجال الأدبي في بعض الموسوعات[2] فقد استفادت بعض الأبحاث - والحقّ يقال- ممّا يشهده هذا المجال من تطوّر في الدراسات المتّصلة بمختلف الأجناس السرديّة بضمير المتكلّم . و نعني على وجه التخصيص ما يسمّى بالرواية الرسائليّة[3] وهي

---

[1] انظر في خصوص تعريف العلاقة الرسائليّة و مستوياتها
Vicent Kaufmann : Equivoque épistolaire, Minuit 1990, Greimas : La Lettre : Approches sémiotiques; Actes du 4ē colloque interdisciplinaire éditions universitaires de Fribourg1988.

[2] انظر مثلا : محمود مقداد : تاريخ الترسّل النثري عند العرب في الجاهلية ،دار الفكر المعاصر و فصله الموسوم بالترسّل في الأدب العربي ضمن الموسوعة العربيّة المجلّد السادس .

[3] انظر في هذا الصدد : Ulla Musarra Schroder: Pour une typologie du récit à la première personne precedé d´ un modele narratologique et d´ une étude du roman memoires traditionnel de Daniel defoe à Gottfried keller; Amesterdam APA Holland University Press 1981